مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية علمية محكمة، العدد ال٤٧، صيف ١٣٩٧ هـ. ش/ ٢٠١٨ م؛ صص ٣٨-١٩

دراسة في الديالكتيك الذاتي والموضوعي في خطاب أدونيس الفني

مهدي نودهي[١]، عباس كنجعلي[٢]*

١. طالب دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة الحكيم السبزواري، سبزوار

٢. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الحكيم السبزواري، سبزوار

تاريخ استلام البحث: ١٣٩٦/٠٢/٢٠ تاريخ قبول البحث: ١٣٩٧/٠٢/٣١

الملخّص

نحن نعيش الآن عصراً يمتاز بالصّراع المعرفي، والّذي كان ولايزال موضعاً للعناية من جانب الفلاسفة الكبار أمثال ديكارت، ونيتشه، وماركس، وغيرهم؛ كلّ منهم له قراءته في الذات والموضوع بشكل عام. فمنهم من ينزع نزعة ذاتيّة، وعلى عكسه من يميل ميلاً موضوعيّاً إلى الإنسان والحقيقة. ولا يخفى على أحد أنّ جدليّة الذات والموضوع إشكاليّة جوهريّة لها قدمة قدم البحوث الطبيعيّة وما بعد الطبيعية الّتي كانت جارية بين أمثال هيرقليط، باعتباره فيلسوفاً سوفيستاً، وسقراط باعتباره فيلسوفاً أصيلاً إغريقياً. ومن زاوية أخرى، فإنّ أدونيس، باعتباره شاعراً متمرّداً على القوالب التصويرية والمعنوية للشعر الكلاسيكي، فقد تأثّر في تجربته ببعض من الفلاسفة القدامى والمعاصرين أمثال هيرقليط وسارتر وهوسرل ومن إليهم. عليه، فإنّ المقال هذا، يهدف، من خلال اعتماده على المنهج الوصفي - التحليلي، إلى إلقاء الضوء على فلسفة أدونيس النظرية، وبالتالي إجلاء بعض ما يكون في تجربته من التحديات الذاتيّة والموضوعيّة. وانطلاقاً منه، يهمّه أيضاً كشف الغطاء عن المحاور الرئيسة الناتجة عنها وهي المتجليّة في "أصالة الإنسان أو الله"، و"استعاريّة الحقيقة وإرادة القدرة "، و"إرادة التشييء أو التجهور"، وما إلى ذلك. هذا من جهة، لكن من جهة أخرى، يشفّ للمخاطب عن أبعاد وتحدّيات الشاعر العقديّة والفنّية، ليكون في موضع يسمح له التعرف عليها أكثر فأكثر.

الكلمات الرئيسة: أدونيس، الديالكتيك الذاتي، الديالكتيك الموضوعي.

*الكاتب المسؤول a.ganjali@hsu.ac.ir

المقدّمة

تعدّ إشكالية "الذات" (Subject) و"الموضوع" (Object) ومابينهما من الصراع، من المبادئ المعرفية– الفلسفية الّتي شغلت ولاتزال ذهنيّة الكثير من الفلاسفة والمحلّلين قديماً وحديثاً؛ حيث لا يمكن القول بأنّ هذه الإشكالية هي نتاج الفلسفة المعاصرة على إطلاقه؛ ذلك أنّ الفلاسفة القدامى، من أمثال سقراط، وأفلوطين، وأرسطاطليس، وغيرهم أعاروا اهتماماً واسعاً بالذات والموضوع، انطلاقاً من تحليلاتهم الفلسفية بشكل عام، كما أنّ هذا الأمر يتقولب في آثار الفلاسفة الجدد أمثال ديكارت، وكنط، ونيتشه وغيرهم. ومن الجدير بالملاحظة أنّ هذا المبحث ـ أي الذات والموضوع ـ في اتجّاه القدامى، هو في اتّجاه الفلاسفة المعاصرين أيضاً؛ لكن بفارق وهو يتجلّى، في حقيقة الأمر، في نوعيّة حركتهما ومسارهما نحو المعرفة. وبعبارة أدقّ، إنّ المباحث المعرفيّة الّتي قام بدراستها القدامى، من الفلاسفة والمحلّلين، تناولها المعاصرون بالدراسة أيضاً، لكن، في كسوة وثوب جديد ممّا لا يختلف عمّا كان عليه من ذي قبل. فعلى سبيل المثال، نجد سقراط يعتقد: "بالوعي ومعرفة الذات" ويعقبه ديكارت في المعاصر ويقول: "أنا أُفكّرُ فأنَا مَوجودٌ"؛ فالجهة المشتركة بينهما هي نزوعهما إلى الاتّجاه الذاتي باعتباره أساساً معرفيّاً في فلسفتهما النظريّة. ومن زاوية أخرى، نلاحظ هيرقلط يعبّر عن نزعته «بالمياه الجديدة: إنّ الّذين يتجمّعون في نهر واحد تغمرهم دائماً مياه جديدة والأرواح تنبعث من الرطوبة» (مهنا، ٢٠١٦م: ٢٦٤). هذا نفس ما عبّر عنه، بشكل آخر، وهو" أنّك لن تعبرَ من نهرٍ مرّتين" وهذه عبارة شهيرة من هيرقلط والّتي تتلخّص فيها نزعته الفلسفيّة. ونلاحظ أنّ أدونيس أيضاً يعكس هذا المفهوم في تجربته الشعريّة، معتقداً بأنّ القراءة المتحوّلة أفضل من الكتابة الثابتة، لأنّه لا يمكننا ـ عنده ـ «أن نعبر من نهر اللّغة مرّتين». فها هنا نواجه مسألة معرفيّة ـ لدى هيرقليط وأدونيس ـ تتّصل تماماً بالنزعة الذاتية والموضوعيّة، معناها أنّهما يعتقدان بأنّ الحقيقة لا يمكن التعرّف عليها، من جرّاء عدم خضوعها لقوانين الحواس. فسنوضحّ هذا الأمر في ثنايا الدراسة، مستشهدين بأمثلة تطبيقيّة على ذلك تفصيلاً.

وعلى الرغم من أنّ مصطلحي "الذاتي" (Subjective) و"الموضوعي" (Objective) قد أصبحا موضعاً للعناية، لغويّاً ومعنويّاً، من جانب المحلّلين والنقّاد قديماً وحديثاً؛ إلّا أنّه هناك ملاحظة هامّة، تُذكَر في هذا المجال، وهي أنّ البعض عرّف الذات بالأمر الذهني، والموضوع بالأمر العينيّ فقط. ومن بينهم عبدالوهّاب المسيري الّذي يقول: «ينسب الذاتي إلى الذات، بمعنى أن ذات الشيء هو جوهره وهويّته وشخصيّته، وتعبّر عمّا به من شعور وتفكير، والعقل أو الفاعل الإنساني هو المفكّر وصاحب الإرادة الحرّة، ويُدرِك

العالم الخارجي من خلال مقولات العقل الإنساني» (المسيري: Www.Arabphilosophers.Com.) والموضوع عنده، «هو الشيء الموجود في العالم الخارجي، وكل ما يُدرَك بالحسّ ويخضع للتجربة، وله إطار خارجيّ، ويُوجد مستقلّاً عن الإرادة والوعي الإنساني» (*المصدر نفسه*).

فبالنسبة لتعريف الذات، لا نشاهد فيه أية مشكلة، إلّا أنّ المشكلة تتمحور حول الموضوعي. نعم! الموضوعي هو ما يكون خاضعاً للتجربة على حدّ تعبير المسيري، لكن هذا التعريف ليس جامعاً مانعاً. فالتعريف الصحيح أنّ الموضوعي هو الّذي يصبح عرضة لتحليل الذات أو **الشخص** سواء أكان خاضعاً للإدراك الحسّي أم غير الحسّي. وبعبارة أخرى، فإنّ الذات هو الشخص باعتباره مفكّراً ونابهاً للموضوع، والموضوع هو ما وضع للتحليل من جانب الذات، مهما كان من الأمر. ومن جانب آخر، فالذاتي (Subjective) منسوب إلى الذات، والموضوعي (Objective) منسوب إلى الموضوع؛ فكلّ ما يتعلّق بالذات أو الشخص، من الصفة كالحزن وغيره، يعتبر ذاتياً وكلّ ما يتعلّق بالموضوع، من أحكام منطقيّة، تصدر من جانب الذات، يعتبر موضوعياً.

ومن هذا المنطلق، تجدر الإشارة إلى أنّ أدونيس يُعدّ من الشعراء الكبار في العصر الحاليّ، وله فضل كبير في توجيه الأدب نحو منطلق تصويري جديد؛ إذ إنّه قام بالتمرّد على الأوزان الخليليّة أو العروض الكلاسيكي من جهة، والرفض لمفهوم البدايات والمبادئ النظرية، في الاتجّاه الإسلامي، من جهة أخرى. وهذا الأمر، دفع البعض إلى رميه بالزّندقة والإلحاد، لما كان في آثاره، من ومضات الكفر، كما يعتقدون. وفي الوقت نفسه، اندفع البعض الآخر إلى اعتباره شاعراً مبدعاً بالمعنى الواسع للكلمة. وفي ضوء ما تقدّم، يمكننا أن نتوصّل إلى نوع من التناقض والثنائية في تجربة الشاعر الشعرية، بمعنى أنّه يجعل الأشياء متداخلة بعضها مع البعض الآخر، ممّا يؤدّى بنا الأمر إلى عدم القدرة على التفرقة والتمييز بينها من حيث الماهيّة والجوهر. فعقدة الخطاب النصي عند أدونيس تتمحور حول الذاتية حيناً، والموضوعية حيناً آخر. وهذا التأرجح، في مساره الفكري والأدبي، هو الّذي يدفعنا إلى تناول هذا الشاعر بدراسة مستفيضة. ومن هذا المنطلق، يجب علينا إلقاء الضّوء على تجربة الشاعر الشعرية، بغية الحصول على نتيجة تجعلنا في وضع يسمح لنا الحكم على، الخطاب الأدونيسي، بالذاتيّة أو الموضوعيّة.

سؤال البحث

ما هي تجليّات الذاتية والموضوعية في خطاب أدونيس الشعري؟

فرضية البحث

فيما يبدو، إنّ الصراع بين الذاتية والموضوعية في اتّجاه أدونيس المعرفي، ينتهي إلى أنّ الإنسان، يحلّ، بوصفه البُعد الذاتي أو القوة المفكرة، محلّ الحقيقة باعتبارها البعد الموضوعي أو القوة الخاضعة للتفكير.

منهج البحث

يقوم هذا البحث، من خلال اعتماده على المنهج الوصفي – التحليلي، وكذلك النقد الفلسفي، بالبحث عن تجليّات وعوامل جدليّة الذاتي والموضوعي، في خطاب أدونيس الشعري، بهدف الحصول على فكرة خصبة ودقيقة في هذا المجال.

خلفيّة البحث

لقد قام الكثير من النقاد والمحلّلين بالخوض في خضمّ الخطاب الأدونيسي الإبداعي، وكلّ اغترف منه ما كان بوسعه من المعنى. فقد اكتفى البعض بالكشف عن صورة الشاعر الشعرية والبعض الآخر مال إلى كشف الغطاء عمّا يكمن في نصّه من الجدليّة بين الصورة والمعنى. ومن الجدير بالملاحظة، أنّ هؤلاء الدارسين جميعاً ـ سواء من انصبّ اهتمامه بدراسة تصويره الشعري أو من درس فلسفته النظرية ـ لم يتناولوا تجربته بالدراسة، في ضوء جدليّة الذاتي والموضوعي على الإطلاق. فمن الدراسات التي تمّ إخراجها في هذا المجال، تمكن الإشارة إلى " الشعر والوجود– دراسة فلسفيّة في شعر أدونيس" للدكتور عادل ظاهر. إذ تطرّق في هذا الكتاب إلى "التموند واختيار الذات"، و"العودة إلى الذات"و" إرادة الكشف أو إرادة الخلق" ومن هذا القبيل الّذي لا يمتّ للموضوع بصلة. وهناك أيضاً مقالات مكتوبة في هذا المجال "مفهوم زمان در شعر شاملو و ادونيس" لحاجي پور وحقدادى. فعلى الرّغم من أنّها تميل إلى النزعة الفلسفية إلّا أنّها لاتتّصل بهذا البحث نهائياً. وكذلك دراسة تحت عنوان "هويّة أدونيس السريّة" وفيما يبدو لنا، أنّها دراسة سيكولوجية ولا تتّفق مع هذا البحث أصلاً. ومنها أيضاً "ملامح السريالية في شعر أدونيس: كتاب التحوّلات والهجرة في أقاليم النهار والليل نموذجاً" لمقدسي وأميني؛ فيتّضح لنا من العنوان نفسه بأن هناك خلافاً جوهرياً بينهما؛ لأنها هي تختصّ بالسريالية التي تنبعث جذورها من علم النفس، في حين أنّ المقال هذا هو إشكالية فلسفية مبتنية على الجدليّة في حدّ ذاتها. ودراسة أخرى تُذكر، في هذا المجال، هي "انديشههاى وجودى در سروده‌هاى شفيعى كدكنى و أدونيس" لشاميان سارو كلايي وثمين وحداني؛ وبالنسبة لهذه المقالة يمكن القول مع أنّها بحث فلسفي في

حدّ ذاتها إلّا أنّ هناك خط فاصل كبير بينها وبين دراستنا هذه، وذلك يتجلّى في أنّ الدراسة هذه تمتاز بأنّها ذات الطابع الجدلي من جهة، والذاتي والموضوعي من جهة أخرى.

ماهيّة الذاتي والموضوعي وتطورهما اللغوي

لقد ورد في لسان العرب «ذات الشيء: (Subject) حقيقةُ الشيء وخاصَّتُه، وكذلك عرَفه من ذاتِ نفسِه كأنّه يعني سريرَته المضمرَةَ، وقال ابن الأنباري في قوله عزّ وجلّ: "إنّه عليم بذات الصدور"معناه بحقيقة القلوب المضمرات» (ابن منظور، ١٩٨٦م: ١٤-٧٨). وجاء الموضوع في الكتاب نفسه في مادة وضع «والوَضعُ ضدُّ الرفعِ، وَضَعَه يَضَعَهُ وَضْعاً مَوضوعاً وأنشدَ ثعلب بيتين فيهما: موضوعُ جودِك ومرفوعُه، عَنَى بالموضوعِ ما أضمَرَه ولم يتكلَّمْ به» (*المصدر نفسه*: ٤٨-٥٨). «ولقد تنوعت معاني هاتين الكلمتين بتنوع صيغهما ومواضع استعمالهما فمن معاني كلمة Subject الذات أو الشخص: القوّة المفكّرة؛ ومن معاني: Object الشيء أو الموضوع الّذي يقع عليه إدراك العقل وتفكيره» (الحسين وآخرون، ٢٠١٤م: ٤٦٠). ومنهما اشتقّت النسبتان Subjective ومعناها ما ينسب إلى الشخص أو الذات أو العقل المفكّر، و Objective ومعناها ما ينسب إلى الموضوع أو الشيء الّذي يقع عليه التفكير. ولذلك فإنّ أحاسيس الشخص، وانفعالاته، وأطرابه، وميوله، وأحكامه الّتي تقوم على اعتبارات داخلية ذاتية، تندرج تحت ما أُطلق عليه Subjective. وأمّا صفات الشيء أو الموضوع الخارجيّ، و الآراء التي تقوم على هذه الاعتبارات الخارجيّة وحدها، والأحكام الّتي تُبنى عليها المشاهد الملموسة وعلى مقتضيات المنطق، لا على الذوق والميل الشخصي، فإنّها تدخل تحت ما أطلق عليه Objective (*المصدر نفسه*، بالتصرّف).

وباعتبارهما منهجين معرفيين، يمكن القول بأنّ الذاتية عبارة عن اعتقاد الفرد بأنّ كل انسان له ذهنيته وتصوره الخاص به، كما أن ذهنيته تمتاز عن مثيله بسلائقه وطبائعه الخاصة أيضاً. على هذا الأساس، فإنّ المباحث والقضايا المختلف عليها، تعبر أخيراً عن مجهر ذهنيّاتنا على حدة. زد على ذلك أنّ القضايا الأخلاقية – في الحالة هذه– تنبعث جذورها عن الأذهان والسلائق، دون أن يترتب عليها أساس عيني (عبدالكريمي، ١٣٩٥ش: ٥٨-٥٩). ويتخلص هذا الاتجاه الفكري في أصالة الذهنية على العينية، رغم وجود نوع من التداخل بينهما. ويأتي مقابله ما اصطلح عليه بالموضوعية وهي«عبارة عن أنها تأخذ الكون الاستعلائي عبر التجربة المحسوسة المتيقنة، لتبحث

عن الحقيقة العينية للكون. وهذه الحقيقة العينية تشتمل على ما هو معتبر للموجود الخاضع للتعقل وما يكون هو في نفسه. فبالطبع، يتم هذا الأمر بواسطة العقل والفلسفة والابستيمة» (جمالی، ١٣٨٥ش: ١٥٦). وبالنسبة لإتيانهما معاً، فإن السبب فيه يعود إلي العلاقة الديالكتية بينهما. وقد نشاهد البعض يقول «إنّ دراسة الموضوعية دون الذاتية لا طائل تحتها، ذلك أنّ الذات والموضوع فإنّما فيهما نسبة التضايف أو التلازم، ولا معنى لأحدهما دون الآخر» (ضميران وآخرون، ١٣٨٣ش: ٦).

أدونيس؛ بدايات التكوين والثورة على المبادئ

«وُلِد علی أحمد سعيد . أدونيس . سنة ١٩٣٠ في قرية قصّابين، بالقرب من مدينة جبلة في محافظة اللّاذقية» (نشاوی، ١٩٨٠م: ٥٠٠). ويقول أدونيس نفسه عن بيته وطفولته: «صورة البيت مختصر للطّبيعة. في الهواء الطلق: جدرانٌ من الحجر والطين، يُغطّيها سقفٌ من الخشب... في الشتاء كانت أمّي تُجلسني في طستٍ كبيرٍ وتَغسلني. كنت أَصرخ وأبكي، خصوصاً عندما تدخل في عيني رغوةُ الصابون. وكانت تقول بهدوء: قلت لك أَغمِضْ عينيك، عندما أَغسلُ رأسَك» (سلامة: Www.Discover-Syria.Com). وكان أدونيس طفلاً، ومات أبوه أمام عينيه، محترقاً في لهيب النار، فلقد كان لهذا الحادث آثار سلبيّة وإيجابيّة كثيرة، في توجيه خطابه الشعري. هذا، وانطلاقاً من نشأته الفقيرة من جهة، وتأثره بالأدب الأروبی واتّجاهه المعرفي من جهة أخرى، فضلاً عن شخصيته الممتازة بالتعقيد والتناقض، فلقد استولى على اتجاهه النظري، نظماً ونثراً، جدليّة بين الذات والموضوع، حيث دفعت البعض، إلى رميه بالإلحاد والآخر أن يعتبره شاعراً بالمعنى الواسع للكلمة. «يعدّ أدونيس . بالمعنى الإيجابي . هو أشدّ الشعراء العرب تأثراً بالمنهج الأوربي وأبعدهم غوراً في رؤيته التجددية في مجالي الشعر ونقده، كما أنه لا يُشقُّ غباره، في تطبيقه للأدب العربي على المعايير الأوربية» (كدكني، ١٣٨٠ش: ٢٠٥). بناء على هذا، يعلن أدونيس بنفسه «الثورة على الماضي، وهي الثورة التي تتضمن كذلك الاتجاه نحو المستقبل، والمظهر الأول لهذه الثورة هو التحرر من التقاليد سواءٌ كانت هذه التقاليد عبادات، أو عادات...والأهم في هذا الصدد كله، أنّ أدونيس يثبت من خلال هذا الطرح في هذه المقاطع، في كتابه، أنه لا إبداع ولا تحديث ولا تقدم، إلّا من خلال هدم الدين وتحطيم عقيدة المسلمين، وإبعاد الشريعة الإسلامية (الغامدي، ٢٠٠٣م: ١٨٨٩-١٨٩٠).

منطلقات أدونيس الذاتية والموضوعية

لقد تأثر أدونيس، في تجربته الشعرية، بالفكر اليوناني قديماً وحديثاً، ممّا نلحظ تجلّيات هذا الأمر، بكثافة واضحة، في لغته الشعرية. ولقد أتى، في حوار جرى بين أدونيس وأبي فخر، أنّه «ارتبط أدونيس بالثقافة الغربية، وبالتيارات المرئية، واللامرئية في الثقافة الغربية، وخصوصاً بالسوريالية، وبحركة التغيّر الّتي وصفها هيراقليطوس، بعبارته المشهورة "إنّكَ لَنْ تَعبرَ النهر مرّتين" فاذا عَبرتَهُ أوّلَ مرّةٍ يكونُ الماءُ على حالٍ، وإذا عَبرتَهُ ثاني مَرّةٍ غُيّرتْ حالُ الماءِ وهويّتُهُ الأصيلة» (أبوفخر، ٢٠٠٠م: ١١٣). وفي المقابل، يمكن القول جزماً، إنّ أهمّ ما يميّز لغة أدونيس الشعرية هو السيولة والحركيّة، لذلك نجده يعبّر، بفارق قليل على مثيله هيراقليطوس، "عن أنّه لا يمكن لنا العُبورُ من نهرِ اللّغة مرّتين" ذلك أنّه، تمرّ علينا كلمات وحروف كثيرة أخرى، لا يمكن التعرف عليها تماماً، والنهر ذلك، ليس هو ما كان قبلاً، بل تغيّر أو قل تحوّل جوهره على الإطلاق. هذه هي فلسفة أدونيس النظرية وعليه، فإنّ الحقيقة، عند أدونيس، أمر سيّال، لا يخضع لأيّ قاعدة فكريّة لتكون ثابتة، بل على عكس ذلك، وهي في طبيعة الحال متحوّلة بلا شكّ. عليه، فقد تأثّر أدونيس ببعض الفلاسفة الأوربّيين، من ضمنهم تمكن الإشارة إلى:

أ) جان بل سارتر

جان بل سارتر[1] من الفلاسفة الوجوديّين الكبار- والّذى تأثّر به أدونيس كثيراً، بشكل غير مباشر، ممّا يتجلّى ذلك في بعض ما ورد من أفكار وجوديّة في نصّه الشعري. فمن ميزات الوجوديّة الميل إلى الحريّة، ولقد تجلّت هذه الركيزة الفكريّة في تجربة أدونيس كثيراً، حيث يقول في قصيدة له تحت عنوان "بينَ عيْنَيكِ وبَيْني":

«حينَما أُغرقُ في عَينَيكِ عَيْني/ أَلمحُ الفجْرَ العَميقا/ وأَرى الأَمس العَتيقا/ وأَرى ما لستُ أَدري/ وأُحسُّ الكونَ يجري بينَ عَينَيكِ وبَيني» (أدونيس، 1996م، ج١: ٤٧).

ومن الجدير بالملاحظة هنا، أنّ من مبادئ أدونيس النظريّة هو نزوعه إلى الحريّة، وهي الّتي تنعكس في المرأة بامتياز. يقول نفسه في هذه المناسبة: إنّه «إذا ما بحثت عن الخالق فاذهب إليه عبر المرأة، فهي النور الّذي يصل السماء بالأرض، ولكي تتوصّل إلى جوهر الكون عليك أن تمرّ بالمرأة أى تمرّ بالحبّ» (أدونيس، ٢٠٠٥م: ٨٥). ولو أمعنّا قليلاً لاتّضح لنا أنّ أدونيس يرى في المرور بالمرأة [جسدياً أو غيره]كبير أثر في حصول الإنسان على المعرفة. لكنّ هذا لا يعني أنّ الشاعر يذهب إلى الدعارة

1. Jean-Paul Charles Aymard Sartre

واللاأخلاقيّة مطلقاً، في مجال التصرّفات الإنسانيّة؛ بل، هو باعتباره وجودياً، يعتقد أنّ الإنسان هو موجود أصيل في ذاته، ولابدّ أن يكون محرّراً عن كلّ قيد ديني أو عقدي إطلاقاً. وعلى الرغم من أنّ أدونيس يرمي، في أشعاره غالباً، إلى تحطيم القواعد الإلهيّة، إلّا أنّه شاعر يلتزم ـ بالمعنى الوجودي ـ بالقواعد الفرديّة والاجتماعيّة، ممّا نلحظ هذا الأمر واضحاً في تجربته الشعرية. ويقول في هذه المناسبة:

«لِلْعَملِ/ شمَّرَ زَنْدَ الأَملِ/ وانطَلَقا/ يَزْرَعُ في ساعدِهِ/ يزرَعُ فيهِ الأُفُقا/ عَمَّرَ في ضميرِهِ/ مَعمَلَهُ ومَصنَعَه/ وحَقلَهُ وجَنَّةً/ في حقلِه مُضيّعة/ بالشوكِ بالدَّمعِ بَنى/ مسْكَنَهُ ورصّعَه/ كأنَّهُ مِنْ أَوَّلٍ/ يَنمُو به ويَكْبُرُ/ في وعيهِ، في صدْرِهِ/ مستَقْبَلٌ يَختَمِرُ/.../ ها زرْعُهُ / مَثَّلَ فيه مسْكَنَه / مَثَّلَ فيه شَعْبَهُ ومَوطنه...» (أدونيس، ١٩٩٦م، ج ٢: ٢٢).

يتحدّث الشاعر هنا عن الطبقة الكادحة في المجتمع وهي الّتي تتحمّل مسؤوليّات وشدائد كثيرة. فهذا الأمر كلّه، يشعرنا بأنّ الشاعر هو ملتزم بقواعد مجتمعه الاجتماعيّة ولايتمرّد عليها بتاتاً. ومن هنا يمكن القول بأن الميل الوجودي للشّاعر، ليس فيه ضعف وركاكة، قياساً إلى الاتّجاه الفكري لدى الوجوديّين؛ فهو يعتبر الإنسان طليقاً ومتحرّراً من المعوّقات والحواجز الفكرية، ذاتياً، ولا يشوب هذه العقيدة [بالحريّة] مسحة من اللاأخلاقية والاستهتار. وبعبارة أخرى، الوجودي و– أدونيس خاصة–«يؤمن أن الإنسان مسؤول عن كل ما يصدر عنه من عاطفة، وأنه لا يمكن أن ينسب ما يصدر عنه من عاطفة إلى غيبيات توحي إليه، وإنما هو الذي يفسر ويؤول هذه الغيبيات كما يحلو له ويروقه» (سارتر، ١٩٦٤م: ٢٦).

فعلى الرغم من دعوته إلى هذه التجربة الفكرية، إلاّ أنّه لا يفوته حثّ المخاطب على الالتزام بالقواعد الاجتماعية والأخلاقيّة الّتي هي، في حدّ ذاتها، من أسس المذهب الوجودي ومبادئه.

ب) فريدريج نيتشه[1]

يُعدّ نيتشه من أقطاب مابعد الحداثة، ولا ينحصر تأثيره في الفكرة الأوربيّة فحسب، بل في الفكرة الشرقية أيضاً. ولقد تأثّر أدونيس بهذا الفيلسوف كثيراً، فالنقطة المشتركة بينه وبين نيتشه تتلخّص في أنّهما أعلنا عن موت الحقيقة باعتبارها أمراً موضوعيّاً.

«والحال أن الفلسفة النيتشية قد وجهت سهامها النقدية إلى الميتافيزيقا التي أفرغت الإنسان

1. Friedrich Wilhelm Nietzsche

من محتواه، أي أنها صنعت فيه التشابه والهوية بدل الاختلاف، فابتعد بذلك الإنسان عن إنسانيته... ومعه انتهت فاعلية الإنسان لصالح جمود الميتافيزيقا، الإنسان الأعلى هو الوحيد القادر على تخطي كل هاته المثبطات، بيد أنه لا يمكن أن يحل قبل أن يمارس لعبته المتخفية ألا وهي الإعلان عن موت العدمية بموت الميتافيزيقا بموت الإله، "من ثمة فإن نيتشه نفسه شرح ميتافيزيقياً Métaphysiquement، حركية التاريخ الغربي، عندما لخصه في كونه قدوما ونشرا للعدمية ليس إله» (معزوز: www.anfasse.org). وعلى هذا الأساس، نجد ملامح وتجلّيات هذا الأمر في نتاجهما الأدبي والفكري بشكل واضح. ففلسفة نيتشه النظرية تتلخصّ في هدم البناء المعرفي وموت الموضوع، وهذا ما نجده، في تعبيره المشهور"لقد مات الله تعالى" وكذلك اعتقاده بالسوبرمان (موجود مافوق بشريّة) وهذه الأمور كلّها، نجدها في تجربة أدونيس، بكثافة واضحة. ومن أبرز ما جاء، حول ذلك، في نصّه الّذي:

«ماتَ إلهٌ كانَ مِنْ هُناكْ/ يَهبِطُ من جُمجُمةِ السماءْ/ لرُبَّما في الذعرِ والهَلاكْ/ في اليَأْسِ في الْمتاه/ يَصعَدُ مِن أَعماقيَ الإلهْ/ لَربَّما فَالأرضُ لي سريرٌ وزوجةٌ/ والعالمُ انحناءْ.» (أدونيس، ١٩٩٦م، ج١: ١٧٣).

هنا نلحظ أنّ أدونيس قد ولّى مدبراً، من العقيدة الإسلاميّة، وقام بالرفض لأساسها الّذي يتمحور حول وجود إلهي مهيمن على هذه الدنيا. كما أنَّ هناك بعض المفردات والجمل في هذا النص مثل" لرُبّمّا في الذّعر والهلاك...يَصعد من أعماقي الإلهُ" تُشعرنا بعقيدة علماء النفس والفلاسفة في الغرب والشرق، ومن ضمنهم فرويد، وكامو، ونيتشة وكذلك ماركس ومن إليهم. كلّ له عقيدته الخاصّة، بالنسبة للعالم الميتافيزيقي أو البُعد الموضوعي، غير أنَّ هناك نقطة مشتركة بينهم وبين أدونيس، وهي تتبلور في اتجاههم المعرفيّ جميعاً. ومن خلال هذه العقيدة الدمّارة يتولّد السوبرمان.

و«قد يكون الطابع المميّز للسّوبرمان هو حبّ الخطر والنزاع، شرط أن يكون لهذين غرض وقصد. فالسوبرمان، من جانبه، لن يطلب السلامة والنجاة، بل سيترك السعادة للعدد الأضخم، فزرادشت ـ وهو في حقيقة الأمر سوبرمان نيتشه ـ كان يتعشّق كل هذه الأمور. كما كان يقوم بالأسفار البعيدة ولم يكن يحبّ أن يعيش دون خطر» (غالب، ١٩٨٨م: ١١١).

واتّضح لنا أنّ الممتاز به السوبرمان أنّه أوّلاً، يطبع بطابع طوباويّ، وثانياً، أنّ له قدرة كبيرة يهدم بها البناء المعرفي ويعيده. وعلى هذا، نجد أدونيس أيضاً أنّه يتقنّع بشخص اسمه مهيار وهذه

الشخصيّة لها دور هامّ في نصّ الشاعر الشعري. وهو، في الحقيقة، يُعدّ "السوبرمان" لأدونيس؛ إذ بنى عليه فكرته بأكملها، متقنّعاً بشخصيّته في عدد كبير من قصائده، ويستشفّ للمخاطب، من خلاله، عمّا يكون له من الفكرة أو الشعور بالغربة، حيث يقول في قصيدة له تحت عنوان "وجه مهيار":

«وجهُ مهيارَ نارْ/ تُحرِقُ أَرضَ النُّجُومِ الأليفة/ هوذا يتخَطّى تُخومَ الخليفة/ رافِعاً بيرقَ الأفولْ/ هادماً كلَّ دارْ/ هوذا يَرفُضُ الإمامةْ/ تاركاً يأسَهُ علامَةْ / فَوقَ وجهِ الفُصُولْ» (المصدر نفسه: ١٥٨).

فثمّة إشارات وإحالات في هذا المقطع الشعري، تدلّنا على نزعة أدونيس التحوليّة وهذا الأمر، يتجلّى، في كثير من الأيام، في شخصيّة مهيار، ذلك أنّه هو الّذي "يَحمِلُ بيرقَ الأفول" و"يرفُضُ الإمامَة" و"يهدِمُ كلَّ دار". ولا يخفى على أحد، أنّ هذه الصفات الّتي تدور حول العبثيّة والعدميّة، هي تعتبر، في حقيقة الأمر، من مميّزات السوبرمان الهدّامة الّتي تتمحور، حولها، فكرة أدونيس ونيتشه، بشكل عام.

ج) هوسرول[1]

ربّما لو دقّقنا قليلاً، في تجربة أدونيس الإبداعيّة، لاتّضح لنا أنّه قد تأثّر، في فلسفته النظرية، باتّجاه هوسرل الفينومينولوجي، وهذا الأمر يبدو واضحاً وشفّافاً. عليه، فإنّ عقيدة هوسرل الفينومينولوجية تتلخّص «في"عودة الأشياء إلى ذاتها" وذلك يعني الميل عن النظريات والمفاهيم الفلسفيّة، إلى إرادة الكشف، والوصف المباشر للظاهرة، ومن ميزات هذا الاتّجاه الفكري "القصديّة"، و"وصف أفعال الوعي" و"تعليق الحكم" وغيرها...» (رباني گلپايگاني، ١٣٨١ش: ٢٣-٢٥). وهذه المحاور الفكريّة، تعني جميعاً، بأنّ أساس الإدراك للشيء هو ما نشاهد أو نلاحظ من ضمن شيئيّته، لا من المسلّمات والقواعد المسبوقة المترتّبة عليها. فالظاهرة هي أساس التعرف على الشيء، وعليه فقد اشتهر هذا الاتّجاه، أيضاً، بالظاهراتيّة كما يسمّى أيضاً الفينومينولوجيا. وتماشياً مع هذه الفكرة، يمكن القول بأنّ أدونيس «ينتمى فى شعره، دون أدنى شكّ، إلى هذا النوع من الأدب ـ أي الفينومينولوجي أو الظاهراتي ـ الّذي يعمل بمبدأ هوسرل. وإنّ العودة إلى

1. Edmund Husserl

الذات، تعني له العودة إلى العيني والمفرد والخاصّ الممثّل في حقل التجربة المباشرة. فهي عودة إلى رؤية الذات في فرادتها، رؤية ذلك الجانب الّذي لا يمكن القبض عليه عن طريق الفاهمة Verstand» (ضاهر، ٢٠٠٠م: ٢٢٧). لكن هذا لا يعني أن أدونيس يرفض ما يكون في خارج الأشياء من المعرفة، بل يعتقد بنوع من التفاعل الحيّ بين الداخل والخارج، ممّا يجعله هذا الأمر أن يعتبر هويّة الشيء أو حقيقته، مكوّنة من التعامل في الداخل والخارج، لا فى الداخل فحسب. فعلى هذا الأساس، نجد أنّ حقيقة الأشياء عنده تمتاز بالحركية والسيلان، لا التجمّد والسكون. ويشير نفسه إلى هذا قائلاً:

«لا تأتي الهويّة من الداخل وحده: إنّما التفاعل الحيّ والمستمرّ بين الداخل والخارج، بحيث يمكن القول، إنّ الهويّة ليست في ما ثَبُتَ واتّضح بقدر ما هي في ما يتغيّر، ولم يتّضح بعدُ. فيمكن القول، بتعبير آخر، إنّ الهويّة معنىً يسكن صورةً متحرّكةً دائماً وإنّها تتجلّى في "الاتّجاه نحو" أكثر ممّا تتجلّى "في العودة إلى"، وإنّها في التفتّح لا في التقوقع، وفي التفاعل لا في الاكتفاء والانكفاء» (أدونيس، ١٩٩٣م: ٧١).

وعلى الرغم من هذا كلّه، وبناء على ما اعتمد عليه أدونيس، نظريّاً، من الاتّجاه الفينومينولوجي ـ وهذا ما يهمّنا في هذه الدراسة ـ يمكن القول بأنّ جدليّته تتمحور حول أصالة القراءة من جديد، لا الكتابة المتبوعة بالمسلّمات أو القوانين المعرفيّة القبليّة. لذلك يوجّه نقداً لاذعاً للنقّاد والمحلّلين العرب، وهذا الأمر يتجلّى في نتاجه الجامعي أي "الثابت والمتحوّل" حيث يعتقد من خلاله بأنّ الحقيقة لا تأتي من المسلمات التأريخيّة والقواعد الحتميّة، بل، فضلاً عن ذلك، فإنّ الواجب، يقتضي هنا الرجوع إلى الأشياء، كما هي، لا كما يجب أن تكون، فعندئذٍ نتعرّف على حقيقة الأشياء أكثر فأكثر.

أدونيس؛ تحدّياته الذاتية والموضوعية

نعرف جيّداً بأنَّ كلّ واحد من هؤلاء الكبار الذين سبق ذكرهم، كان له فضل كبير في حركة الفلسفة نحو التقّدم والتطوّر، وكلّ منهم له أيضاً موقفه الخاص من الحقيقة، إلاّ أنّه كان فيما بينهم خيط معرفي مشترك يربط بعضهم بالآخر، وها هو "أصالة الطبيعة" و"استحالة الحقيقة"، باعتبارها أمراً موضوعياً. وفي ضوء ما تقدّم، يمكن التوسّع في البحث عبر المحاور الجدليّة التالية:

١. أصالة الإنسان أو الله

لقد تأثّر أدونيس، في هذا المجال، باتجّاه سارتر المعرفي ـ باعتباره الفيلسوف الوجودي ـ وراح يعتقد بأنّ الإنسان هو الأصل، وهذا الأمر يتجلّى في عقيدته المعنونة "بقراءة جديدة" عن الحقيقة. وهذه الفكرة هي، في حدّ ذاتها، فلسفة أدونيس النظرية. ويقول نفسه في هذه المناسبة، موجّهاً نقداً لاذعاً للنقّاد والكتّاب العرب: «إنّ أزمة الثقافة العربيّة، اليوم، في جميع جوانبها، أزمة قراءة أكثر ممّا هي كتابة. وهذه القراءة لا تتعلّق بقراءة النصوص الحديثة فقط، بل بقراءة النصوص القديمة أيضاً. والقراءة السائدة، اليوم، وبصورة خاصّة، فيما يتعلّق بالنصوص القديمة، كارثة، وهي كارثة معرفيّة.» (أبوفخر، ٢٠٠٠م: ١٢١). وعلى هذا، فإنّ هاجس أدونيس المعرفي هو "إعادة القراءة" سواء أكانت في مجال الديانة أم الثقافة وما إلى ذلك. فقراءة أدونيس الرافضة للثّقافة الإسلاميّة، تنتهي بنا إلى القول جزماً بأنّ هذا الشاعر ينزع، في تجربته، نزعة وجوديّة تُدعى بأصالة الإنسان دون أيّ شيء آخر.

و«تنقسم الوجوديّة على قسمين أساسيّين أولهما: الوجوديّة الإلحاديّة الّتي تبدأ من فردريش نيتشهFriedrich Nietzsche وبتعبيره "غروب الأصنام" يعتبر الإنسان موجودا حرّاً على الإطلاق. وثانيهما: الوجوديّة غير الإلحادية وقد تسمّى الوجوديّة الدينيّة» (شاميان ساروكلامى وثمين وحدانى، ١٣٩٤ش: ١٢٨).

وعلى الرغم من أنّ أدونيس أصبح موضعاً للعناية والدفاع من جانب الّذين اتّفقوا معه في المجال المعرفي، إلاّ أنّه وقع، في حقيقة الأمر، في الوجوديّة الإلحاديّة والّتي تعتقد بخالقيّة المخلوق ومخلوقيّة الخالق. وهذا الأمر يأتي انطلاقاً من قراءة أدونيس الفينومينولوجيّة للفطرة الإنسانيّة وبالتالي حقيقة الحقيقة، حيث يقول بأنّ الفطرة هذه، مضادّة ومنافية للديانة، ذلك أنّ الإنسان موجود حرّ بامتياز، ولا ينبغي سدّ طريقه بالحواجز الميتافيزيقية والدينية، وواجبه هو الالتزام الأخلاقيّ، لكن ليس بمعناها الديني بل بالمعنى الكنطي:

«الفطرة مضادّة للدين، لأنّ الدين ـ قانون مضادّ للطبيعة ومضادّ للإنسان ـ وإذا لم تكن الحريّة المادّية والحسّية، فلن تكون أكثر من مجرّد فكرة مجردة. كلّ ما كان جميلاً كنت أفعله. فالأخلاقيّة المطلقة عندي هي أن لا تؤذي الآخر على الإطلاق» (أدونيس؛ ٢٠٠٥م: ٦٧).

وهناك قصائد وأشعار كثيرة لأدونيس في مجال الفكرة الوجوديّة الإلحاديّة، أكّد فيها الشاعر على الركائز الوجوديّة المحوريّة ك"الحريّة في التعبير والعمل"، و"إعلان موت الله"، و"الالتزام بالقواعد

الاجتماعية"، و"أصالة الانسان" وغير ذلك مما له علاقة بهذا الموضوع. ومع هذا، فإنّنا في بعض الأحيان، نجد أدونيس يقوم بالإتيان بتعابير وأيقونات تنمّ لنا عن فكرته الرافضة لله. يقول مثلاً:

*«تَقَنَّعي بِالخَشَبِ المحروقْ/ يا بابلَ الاسرارْ/ أنتَظرُ اللهَ الّذي يجيءْ/ مُكتَسياً بالنّار/ مُزَيَّناً بِاللُّؤلُؤِ الْمَحروقْ/ مِنْ رِئَةِ البَحرِ مِنَ المَحارْ/ أنتظرُ اللهَ الّذي يحارْ/ يَغضِبُ يَبكِي يَنحَني يُضيءْ-/ وجْهُكَ يا مهيارْ / **يُنبِئُ بِاللهِ الَّذي يَجيءْ**...»*

(أدونيس، ١٩٩٦م، ج١: ١٨٩).

ومن المسلّم به، أنّ الشاعر هنا يشعرنا بشكل مباشر، أنّ مهيار، هو الّذى حلّ محلّ الله تعالى في فكرته، بشكل عام. ونعلم بأنّ مهيار هنا، في حقيقة الأمر، هو رمز للإنسان بشكل عام؛ الإنسان الّذى يتبلور فى وجهه حقيقة الوجود الإلهي الّذى من مميّزاته الحيرة، والبكاء، والانحناء، والإضاءة. وبطبيعة الحال- أي اعتقاد الشاعر بمحورية الإنسان وإصالته في الأرض- يتحوّل جوهر الله من الإطلاقيّة إلى النسبية وهي الّتي تعنى محدوديّته في المكان والزّمان وغيرهما. فلايخفى على أحد، بعدئذٍ، أنّ أدونيس هو في طبيعته، شاعر وجوديّ إلحاديّ بالمعنى الواسع للكلمة. ومن تجليّات وجوديّته ـ فضلاً عن رفضه للعالم الميتافيزيقي ـ هي نزعته إلى الموت، إذ يقول فى قصيدة "أغنيات للموت":

«كَأَنَّهُ الموتُ إذا مَرَّ بي/ يَخنِقهُ الصَّمتُ/ كَأَنَّهُ نَيامُ إنْ نِمْتُ/ يا يَدَ الموتِ أطِيلي حَبلَ دَرْبي/ خَطَفَ المجهُولُ قَلبِي/ يا يَدَ الموتِ أَطِيلِي/ عَلَّني أَكشِفُ كُنهَ المستَحيلِ/ وأَرى العالمَ قُربِي...» *(المصدر نفسه: ٤١).*

ومن مميّزات الوجوديّين ـ فمن الرواة إلى الشعراء والمحلّلين ـ هو القلق أوّلاً والنزعة إلى الموت ثانياً. فعلى هذا الأساس، نجد أدونيس ـ بوصفه شاعراً وجودياً ـ يميل، في غير قليل من مواضعه الشعريّة، إلى مشاجرة الموت والقلق. وليس هذا القلق والموت عنده، من النوع الّذي نتج عن موت أبيه في طفولته فقط، بل في كثير من الأحيان، هو يقلق ويموت وجودياً على إطلاقه.

٢. استعارية الحقيقة وإرادة القدرة

يُعدّ مبحث "الحقيقة والاستعارة" من المباحث الفكريّة الّتي عكف عليها الفيلسوف الكبير نيتشه وتوصّل، من خلاله، إلى أنّ الحقيقة ليست إلاّ جملة من الاستعارات المتراكمة بعضها على البعض.

وبعبارة أدقّ، إنّ الحقيقة «ليست إلاّ جيشاً عرمرماً من الاستعارات والكنايات والخيال الإنساني. ثم سنّت هذه الأمور باعتبارها أصلاً. وليس الأمر كذلك ـ في الحياة. الحقائق أوهام نسينا أنّها هي وهم؛ أو بالأحرى استعارات قد استهلكت، لاستفادتها، في مرّات عديدة. وأفقده الاستهلا ك قدرتها الأصلية. كما هي الحال للنقود الّتي امّحت رسومها وأصبحت لم تَعُد الآن تشعرنا بالنقد بل بالحديد...» (نيتشه، ١٣٧٧ش: ٢٥). ولعلّ أدونيس لم يقل بأنّ الحقيقة استعارة ـ كمثيله نيتشه ـ بشكل مباشر، لكنّه، باعتماده على بعض من العناوين ك" أوراق في الريح "، "مفرد بصيغة الجمع" يشعرنا، في بادئ الأمر، بالتمرّد والعصيان على القواعد الميتافيزيقية من جهة، والعدميّة النيتشوية، من جهة أخرى. شأنه في هذا المجال، فضلاً عن نيتشه، هو هيرقليط الفيلسوف اليوناني الّذي كان يعتقد بحركيّة الحقيقة وبالتالى عدم قدرة الانسان من التعرّف عليها. هذه الفكرة، تتجلّى في تعبيره الشهير "إنّك لن تعبر مرّتين من نهر واحد"؛ لأنّ النهر، عنده، ليس ثابتاً والحواسّ الإنسانية، من مميّزاتها التحول والحركة، ممّا لا ثبات لها. فالحقيقة عندهم تمتاز بالسيولة والحركيّة و التحول بشكل عام. ولقد دلّنا أدونيس في مواضع عدّة من لغته الشعرية، على سيولة الحقيقة والمعنى:

«رَكّبتُ ماهيَّتِي/ يَقيناً وظنّاً فى صَحنٍ واحدْ/ تصريحاً، وشهادتي الرمزُ/.../ أَكتُبُ الأمورَ الّتي هيَ مِنْ جِنسِ ما لا يُكتبْ.../ حم، آلم/ حَيثُ أُفرِغُ قلبي مِن أَخبارِ الغَيرِ/.../ لا أَكتُبُ/ لماذا كُلَّما أوضَحْتُ ازْدَدْتُ غُمُوضاً؟!/.../ لا خَيرَ لا شَرَّ/ لا شَيءَ غَيرَ هذهِ الحَرَكاتِ الصَّعبَةِ السهلَةْ...» (أدونيس، ١٩٨٨م: ٢٢٩-٢٢٦).

وفى الحقيقة، إنّ أدونيس، هو من الشعراء الّذين يعتمدون، في تجربتهم، على التعابير المتناقضة، ممّا لا يسمح للمتلقّي أن يتلمّس معرفة ولو قليلة من مَعين فكرتهم. عليه، فإنّ ماهيّة أدونيس تتكوّن من الأضداد: اليقين والظن، والوضوح والغموض، والخير والشر وما إلى ذلك. وهذا الأمر، فضلاً عن المصطلحات الرمزية في ثنايا شعره من "حم" و"الم" وغيره، يبيّن لنا أنّ الحقيقة، عنده، لا يمكن الحصول عليها قطعاً؛ ذلك أنّه يقف من الثنائيّات موقفاً ليس له عقيدة حاسمة منها أبداً. لذلك نجده متأرجحاً بين هذا وذاك...!

وبغضّ النظر عن هذا كلّه، لقد اهتمّ نيتشه، جانبين فى فلسفته النظرية، «أحدهما يتجه للهدم، والثانى للبناء. وهو يرى أنه لا يمكن إقامة بناء جديد إلا بعد هدم البناء القديم، وإزالة أنقاضه تماماً من المكان. أمّا هذا البناء القديم فهو الذى أقامه الأجداد منذ آلاف السنين فى مجالى الأخلاق والفلسفة، وتناقلته الأجيال عن بعضها، وساد الفكر والسلوك الإنسانيّيْن حتى العصر

الحديث. وقد قام نيتشه بتحليل دؤوب لعناصر هذا البناء، سواء فى أسسه أو تفصيلاته، ثم انتهى إلى الإحاطة بما أطلق عليه "الأصنام" التى رفعها القدماء بأنفسهم ثم عبدوها» (طاهر: Www.Hamedtaher.Com).

والجوانب هذه هي الّتى تطرّق إليها أدونيس أيضاً، لكن هناك فارق بسيط بينهما وهو أنّ أدونيس لم يتطرّق إلى الحقيقة والقدرة والأخلاق بشكل مباشر، على حدة، بل تعرّض لهذه القضايا من خلال احتكاكه بالفلسفة الوجوديّة والعدميّة وما إليهما. وعلى سبيل المثال، نجد أدونيس، في كتابه "الثابت والمتحوّل" يلقي قراءة جديدة على الثقافة الإسلاميّة، حيث يقوم بإيجاد الربط بينها ـ أي هذه الثقافة ـ و بين إرادة القدرة. يقول نفسه في هذا الصدد:

«فى أساس الإشكال المعرفي العربي أنّ الاتّجاه الّذي قال بالثابت النصي على المستوي الديني، قاس الأدب والشعر، بعامّة، على الدين. و بما أنّه لأسباب تاريخيّة، كان يمثّل رأى السلطة، فإنّ الثقافة الّتي سادت، كانت ثقافة السلطة ـ أي أنّها كانت ثقافة الثابت. هكذا، حدث في الممارسة تمفصل بين الديني السياسي، من جهة، والثقافي من جهة ثانية. وتحوّلت المعرفة الدينية الخاصّة إلى معياريّة معرفيّة عامّة» (أدونيس، 1994م: ج١: ١٤).

فيمكننا، «في هذه الحالة، أن نصف قراءة النص الديني السائدة بأنّها قراءة إيديولوجيّة وتقتضي العمل للفوز بالسلطة من أجل تعميم حقائقها. عندئذ، تصبح المعرفة سلطة، والسلطة معرفة: تتماهى الحقيقة مع القوّة...» (المصدر نفسه: ٢٥).

ولو أمعنّا قليلاً في هذه العبارات، لاتّضح لنا أنّ أدونيس حاول في كلامه إقامة الربط بين القدرة والثقافة الإسلاميّة. هذا يعني أنّ هذه الثقامة تتكوّن في أساسها من القواعد المسبقة والمبادئ الثابتة الّتى لا تخضع لأيّ تغيير ولا تبديل أبداً. وسلطويّة هذه الثقافة، عند أدونيس، تأتي أيضاً من أنّ كلّ شيء ـ من الفنّ عامّة، والفقه الإسلامي خاصّة . يتمحور حول دائرتها وهي مستولية عليها على الدوام. لذلك يقول أنّ المعرفة ـ أي الإسلاميّة ـ سلطة، والسلطة معرفة.

٣– إرادة التشييء أو التجهور

النزعة الظاهراتية أو الفينومينولوجيّة، في طبيعة الحال، هي الّتى «استخدمها هوسِرْل في اتّجاهه الفلسفي، وذلك يعنى العودة إلى الداخل أو ذات الشيء، العودة إلى المعطيات التى لم تفرض على ذهنيّتنا، بل الأساس هو ما نفهم وندرك من الشيء نفسه أو ذاته بشكل عام» (خاتمي، ١٣٨٢ش: ٩٨).

ولقد تأثّر أدونيس، كما قلنا سلفاً، بالمذهب الظاهراتي أو الفينومينولجي الّذى يعتقد بأصالة

الشيء وما يتعلّق بالتشييء. تأثّر هو في هذا المجال، بفلسفة هوسرل، والّذى هو كان في قمّة هذا الاتّجاه الفلسفي. وفي ضوء ما تقدّم، يعتقد أدونيس بنوع من التجريد المعرفي؛ ذلك يعني أنّ أساس التفكير هو تجريد الشيء عمّا كان مفروضاً عليه، من المبادئ المعرفيّة. وبعبارة أدقّ، معرفة الشيء في ذاته، لا في الخارج. «إنّ شعر أدونيس ينتمى، بدون أدنى شكّ، إلى هذا النوع من الأدب الّذى يعمل بمبدأ هوسرل. إنّ العودة إلى الذات، تعني له العودة إلى العيني، والمفرد والخاصّ الممثّل في حقل التجربة المباشرة. فهي عودة إلى رؤية الذات في فرادتها، رؤية ذلك الجانب الّذى لا يمكن القبض عليه عن طريق الفاهمة Verstand» (ضاهر، ٢٠٠٠م: ٢٢٧).

وكثيرة هي الأشعار أو القصائد الّتى أستخدم فيها أدونيس، الاتّجاه الظاهراتي أو الفينومينولوجي بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وتماشياً مع هذه الفكرة، إنّ المعرفة عند أدونيس – كظاهراتيّ– تعني التخلّص من قيد أو زنزانة المبادئ المعرفيّة التاريخيّة أو كلّ ما اعترضها كسدّ منيع تمنعنا من التقدّم المعرفي لذات الشيء. فمن نتائج هذه الجدليّة الأدونيسيّة، نتوصّل إلى أنّ هناك محورين أساسيين، يُذكران في هذا المجال، وهما الاتّجاه الشهودي وتعليق الأحكام والمبادئ النظريّة، وبالتالي تجريدها عن الشيء ليصبح هو قائماً بنفسه، ويخضع للتجربة المعرفيّة كما هو، لا كما يجب أن يكون. فالنزعة السرياليّة لأدونيس، في حقيقة الأمر، تعود إلى اتجاهه الفينومينولوجي ويتجلّى هذا الأمر في زوايا مختلفة من شعره:

«أَحْلُمُ أَنَّ في يَدَيَّ جَمرَةٌ/ آتيةٌ على جَناحِ طائرٍ/مِنْ أُفقٍ مغامِرٍ/ أَشُمُّ فيها لهَباً– قَرطاجَةُ العُصُور/أَلمحُ فيها امرأَةً/ يُقالُ صارَ شعرُها سَفينَةً/ أَلمحُ فيها امرأَةً– ذَبيحَةَ المِصير/ أَحْلُمُ أَنَّ رئتَيَّ جَمرَةٌ/ يَخطِفُني بُخورُها يَطيرُ بي لِبَعْلَبَكّ/ بَعَلْبَكّ مَذْبَحٌ/ يُقالُ فيهِ طائرٌ مُؤَلَّهٌ بِمَوتِهِ/ وقيلَ بِاسمِ غَدِهِ الجَديدِ باسمِ بَعثِهِ/ يَحترِقُ/ والشمسُ من حَصادِهِ والأُفُقُ...» (أدونيس، ١٩٩٦م، ج ٢: ٦٧).

فإنّ استخدام الشاعر تعابير ك"أحلُمُ"، "باسْم غَدِهِ الجديد"، "باسْم بعثِهِ" يدلّنا على سفره إلى الداخل وهذا يظهر لنا أساس اتّجاهه الفينومينولوجي. وكثيرة هي القصائد الّتى رحل فيها الشاعر إلى أعماق القلب وحقيقة التاريخ الإنساني، حيث ليس هناك تمفصل بين الواقع والحقيقة بل هناك علاقة عضويّة بينهما، وهذا، في حقيقة الأمر، يشعرنا، بنزوع الشاعر الفينومينولوجي أو عودته الى الذات، بشكل عام. وهذا يبدو جلياً في حديثه عن الرؤيا:

«ولا تحدث الرؤيا إلاّ في حالة الانفصال عن عالم المحسوسات، ويحدث الانفصال في حالة النوم، وتسمّى الرؤيا عندئذ حلماً...**هي كذلك استغراق في الذات**...» (أدونيس، ١٩٧٨م: ١٦٦).

وهناك قضيّة أخرى تجدر الإشارة إليها، هي، أنّ أدونيس، ولاسيّما في كتابه "الثابت المتحوّل"، يشير في كثير من الأحيان إلى "تعليق الحكم" وهو من التجليّات الفينومينولوجيّة. على هذا الأساس، يعتقد بأنّ الشاعر العربي المعاصر تأثر بالمبادئ التاريخيّة والعقائديّة، ممّا ليس له أيّة استقلاليّة معرفيّة في هذا المجال. فالمهمّ عنده هو العصيان والتمرّد على القواعد الفكريّة المسبقة وبالتالى القيام بالقراءة على المبادئ النظريّة من جديد، ممّا ينتهي بنا الأمر، إلى ذات الشيء المجرّدة عن أيّة علاقة نظريّة تاريخيّة لها، بشيء آخر. يقول نفسه في هذا المجال «أنا ضدّ البدايات وضدّ مفهوم البداية وضدّ مفهوم الأوّل» (أدونيس، ٢٠٠٠م: ١٢٠).

النتيجة

في ضوء ما تقدّم، فالنتيجة تتلخّص في المحاور الآتية:

□ إتّضح لنا، من خلال الدراسة هذه، أنّ الديالكتيك الذاتي والموضوعي، لم يقع، كما هو، موضعاً للعناية من جانب المحلّلين العرب، ولاسيّما من جانب من هم يعنون بالقضايا الفلسفية في مجال الأدب. زد على ذلك، أنّه إذا تم إخراج بحوث بهذا الصدد، إلاّ أنه لم تجر فيها جدلية بين الذات والموضوع بمعناها الحقيقي؛ بل وحتى لم تتجاوز عن عرفها اللغوي.

□ ومن هذا المنطلق، يمكن أن نقول إن أدونيس ينتهي إلى تجربة معرفية جديدة وهي تتجلى في ميله المبالغ فيه إلى الانغماس في حقيقة الأشياء، انطلاقاً مما يسمّيه نفسه بالقراءة الجديدة للحقيقة، ومن هنا قد فتح باباً للدخول على الفضاء الفينومينولوجي وذلك يأتي نتيجة اعتباره التراث مجرّداً عن دائرة الحقيقة. من هنا يجري عراك في ذهنيته بين الذاتي والموضوعي، فالحقيقة، باعتبارها أمراً موضوعياً لديه، ليست أمراً ثابتا، بل وحشي لايمكن التعرف عليه من خلال التراث على الإطلاق.

□ ومن خلال نزعته الوجودية، يرسم الإنسان، بوصفه أمراً ذاتياً، محوراً للطبيعة وأصلاً لتخطيط الشريعة، وسُلّماً للتعرف على الحقيقة. فمن زاويته الفكرية هذه، يتغير لديه جوهر الله والإنسان في وقت معاً، فيصور الله متجرداً عن ألوهيته والإنسان عن بشريته، معبراً الإنسان هو المستولي والمهيمن على الطبيعة على إطلاقه. من جهة أخرى، فإن تقنع الشاعر بشخصية مهيار

الدمشقي واعتباره إياه بما فوق البشرية، والإله الجديد، يكفينا اقتناعاً بالنسبة لرؤيته الفكرية هذه.

□ أخيراً، فإن اهتمام أدونيس بالتحوليّة، وبالتالى، دعوته إلى قراءة جديدة للحقيقة والقضايا العقديّة، دون استناد إلى مبادئ نظريّة مسبقة، وكذلك دعوته بالعودة إلى الذات أو الانصراف إلى الداخل، هذه كلّها تشعرنا بميله الذاتي في بنائه المعرفي.

المصادر

كتب

١) عربي

إبن منظور، محمّد بن مكرم (١٩٨٦م)، **لسان العرب**، دار إحياء التراث العربى، الطبعة الثالثة، بيروت.

أبوفخر، صقر؛ (٢٠٠٠م)، «**ثقافة / مقابلات: حوار مع أدونيس عن الشعر والوطن والمنفى**»، الدراسات الفلسطينيّة، العدد٤١، صص ٩٧-١٣٦.

أدونيس، (١٩٩٦م)، **الأعمال الشعريّة الكاملة (أغاني مهيار الدمشقي و قصائد أخرى)**، المجلد الأول والثاني، الطبعة الرابعه، دمشق: بيروت، دار المدى للثقافة والنشر.

ـــــــــ، (١٩٨٨م)، **مفرد بصيغة الجمع**، بيروت: دار الآداب.

ـــــــــ، (١٩٩٣م)، **النص القرآني وآفاق الكتابة**، بيروت: دار الآداب.

ـــــــــ، (١٩٩٤م)، **الثابت والمتحوّل**، الطبعة السابعة، لبنان: بيروت، دارالساقي.

ـــــــــ، (١٩٧٨م)، **صدمة الحداثة**، بيروت: دارالعودة.

ـــــــــ، (٢٠٠٥م)، **الهويّة غير المكتملة**، بالتعاون مع شانتل شواف، الطبعة الأولى، تعريب حسن عودة، سوريا: بدايات للطباعة والنشر والتوزيع.

حسين، مبارك وآخرون، (٢٠١٤ م)، «مصطلح الذاتيّة في النقد الادبي ودلالاته»، **مجلة العلوم الانسانيّة (عمادة البحث العلمي)**، العدد٣، صص٤٥٣-٤٦٣.

سارتر، جان بول، (١٩٦٤م). **الوجودية مذهب إنساني**، مع مناقشة سارتر والكاتب الماركسي م.نافيل المترجم: عبدالمنعم الحفني، الطبعة الأولى، دار العقدية للطبع و النشر والتوزيع.

ضاهر، عادل، (٢٠٠٠م)، **الشعر والوجود (دراسة فلسفيّة في شعر أدونيس)**، الطبعة الأولى، سوريا: دمشق، دارالثقافة للنشر.

غالب، مصطفى، خليل شرف الدين (١٩٨٨م)، **في سبيل موسوعة فلسفيّة (نيتشه)**، الطبعة الأولى، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

الغامدي، سعيدبن ناصر، (٢٠٠٣م). الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، دراسة نقدية شرعية، الطبعة الأولى، دارالأندلس الخضراء.

مهنا، ناظم، (٢٠١٦م)، «أنطولوجيا فلسفيّة»، **مجلّة المعرفة**، العدد ٦٣٤، صص ٢٤٩-٢٩٦.

نشاوي، نسيب، (١٩٨٠م)، **مدخل إلى دراسة المدارس الأدبيّة في الشعر العربيّ المعاصر**، سوريا: دمشق، الناشر: نفس الكاتب.

٢) فارسي

جمالی، غلامعباس، (١٣٨٥ش). «ایده علوم ابژکتیو وابژکتیویسم»، **پژوهش نامه علوم انسانی**، شماره ٤٩، صص ١٤٩-١٦٠.

خاتمی، محمود، (١٣٨٢ش)، «پدیدارشناسی دین»، **فلسفه و کلام**، شماره ٢٧، صص: ٩٣-١٠٤.

ربانی گلپایگانی، علی، (١٣٨١ش)، «پدیدارشناسی ادموند هوسرل و هرمونوتیک»، **کلام اسلامی**، شماره ٤٢، صص٢٢-٤١.

شامیان سارو کلایی، اکبر وثمین وحدانی، فاطمه، (١٣٩٤ش)، «اندیشه‌های وجودی در سروده‌های شفیعی کدکنی و آدونیس»، **مجله ادبیات تطبیقی**، شماره١٣، صص ١٢٣-١٤٨.

شفیعی کدکنی، محمدرضا، (١٣٨٠ش). **شعر معاصر عرب**، ویرایش دوم، تهران، نشر سخن.

ضمیران، محمد و دیگران، (١٣٨٣ش). «هایدگر؛ سیاست واستعلاء»، **کتاب ماه و ادبیات**، شماره ٧٩، صص٦-٢٣.

عبدالکریمی، بیژن، (١٣٩٥ش). «تفکر معنوی و سوبژکتیویسم متافیزیکی»، **دوفصلنامه پژوهش های عقلی نوین**، سال اول، شماره دوم، صص ٥١-٥٨.

نیچه، فردریش، (١٣٧٧ش)، **استعاره و حقیقت**، ترجمه سارا هافمن، تهران، نشر آگاه.

٣) مآخذ من الإنترنت

سلامة، نبيل؛ أدونيس: اكتشف سوريا، Www.Discover-Syria.Com/News

طاهر، حامد؛ فلسفة القوة بين المتنبي و نيتشه، Www.Hamedtaher.Com

المسيري، عبدالوهّاب؛ الموضوعية و الذاتية، Www.Arabphilosophers.Com

معزوز، هادي؛ موت الإله في فلسفة نيتشه، Www.Anfasse.Org

خوانشی بر دیالکتیک سوبژه و ابژه در گفتمان هنری آدونیس

مهدی نودهی[1]، عباس گنجعلی[2]*

۱. دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی دانشگاه حکیم سبزواری

۲. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه حکیم سبزواری

چکیده

اکنون در دوره‌ای قرار داریم که مهم‌ترین شاخصهٔ آن، چالش معرفت‌شناسی است. این، موضوعی است که همواره مورد عنایت و توجه فیلسوفانی چون دکارت، نیچه و مارکس و... بوده‌است. هرکدام از این اندیشمندان، خوانش خاص خود را نسبت به سوژه و ابژه دارند. برخی از آن‌ها گرایش سوژه‌محور و برخی دیگر نیز گرایش ابژه‌محور، در رابطه با انسان و حقیقت دارند. پرواضح است که دیالکتیک سوژه و ابژه از مفاهیم و مؤلفه‌های بنیادینی است که سابقهٔ آن به موضوعات فیزیک و متافیزیک برمی‌گردد که بین هراکلیتوس، از سوفسطاییان و سقراط، فیلسوف یونانی جریان داشته‌است. از دیگر سو نیز، آدونیس، به عنوان شاعری که بر قالب‌های تصویری و معنایی کلاسیک تاخته، تحت تأثیر برخی از فیلسوفان کلاسیک و مدرن به‌ویژه هراکلیتوس، سارتر و هوسرل قرار گرفته‌است. بر این اساس، این جستار با تکیه بر روش توصیفی ـ تحلیلی می‌کوشد تا نخست به فلسفهٔ نظری آدونیس بپردازد، سپس محورها و چالش‌های سابجکتیو و آبجکتیو موجود در تجربهٔ شعری وی را برای مخاطب ترسیم کند. همچنین، مهم‌ترین محورهای برخاسته از آن یعنی «اصالت بشر یا خدا»، «حقیقت: استعاره یا حقیقت»، «ارادهٔ معطوف به قدرت» و «شیءوارگی یا بنیادگرایی» را بررسی می‌کند. از دیگر سو نیز، با توضیح و تبیین ابعاد اندیشگانی آدونیس، زمینه را برای مخاطب فراهم می‌کند تا بیش‌ازپیش نسبت به این امر آگاهی یابد.

کلیدواژه‌ها: آدونیس؛ دیالکتیک سوژه؛ دیالکتیک ابژه.

*نویسندهٔ مسئول: a.ganjali@hsu.ac.ir